نوابغ العرب - ١٤

الشيخ عبد الحميد بن باديس



دار العودة - بيروت

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي Telegram: https://t.me/Tihama_books

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 22 / شوال / 1444 هـ
المـوافق 12 / 05 / 2023 م

سرمد حاتم شكر السامرائــي

الشيخ عبد الحميد بن باديس

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

حقوق الطبع محفوظة
لدار العودة

١٩٧٦

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي -Sarmed Twitter: @sarmed74
قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي Telegram: https://t.me/Tihama_books

نوابغ العرب - ١٤

الشيخ عبد الحميد بن باديس

دار العودة - بيروت

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي Telegram: https://t.me/Tihama_books



أسرة العودة : الدكتور عز الدين اسماعيل
الدكتور أحمد زكي
الدكتورة نبيلة ابراهيم

الشاعر صلاح عبد الصبور
الشاعر معين بسيسو

فاروق خورشيد
عبد المنعم شميس
أحمد سعيد محمدية
فاضل السباعي
خليل هنداوي
عاصم الجندي

اللوحات والرسوم الداخلية : الفنان جمال كامل
الفنان حسن جوني
الفنان حسيب





« ابن باديس » الذي حمل راية القرآن الكريم دفاعاً عن التراث والحضارة العربية في الجزائر ، وقاتل مستبسلاً من أجل تأكيد عروبة الجزائر — جزءاً من الأمة العربية — والذي يعتبر الأب الروحي للشعب الجزائري في تمسكه بالعروبة قومية والاسلام ديناً .

الخلاص

اجتمع فيه من السجايا والخلال ما لا يتوافر إلاَّ في القادة الملهَمين الذين يجود بهم الزمانُ على الأمم في أيامها الحالكات .

كان كاتباً وشاعراً وصحفياً ، ومحدِّثاً ومفسِّراً وفقيهاً ، وكان مصلحاً قد تتلمذَ على المبادىء الإصلاحية التي نادى بها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ، فكان خلاصةً طيِّبة لهؤلاء جميعاً : فكراً وطموحاً إلى الإصلاح ... وكان ، إلى ذلك كله ، جريئاً ثابت الجنان ، متواضعاً تواضعاً يأسرُ القلوب .



نظرَ ...

فرأى الإستعمارَ جاثماً على صدر الشعب ،

ورأى الجهالة فاشيةً ، والدينَ يتوارى خلفَ رُكامٍ من البدعَ والخرافات ، واللغةَ العربيةً توشك أن تندثر !

فآمن أن الخلاصَ لن يكون إلا بتطهير العقيدة ممـا شابها من الشوائب ، وإلاّ بإحياء اللغة العربيـــة ، وإلاّ بتقوية الثقة في النفوس المنهارة ...

فأخذ على عاتقـه – وهو الفرد – أن يبدأ بتعليم الصغار لغتَهم القومية ، ويُحيي في نفوسهم معاني القرآن ، في ظل حكم استعماري يُحرّم عـــلى العرب أن يتعلّموا لغتَهم في مدارس بلادهم ، على حين يُفسح الفرصةً أمـام الإرساليات التبشيرية مـــن أجل « فَرْنَسَة » الناس ، لغةً وديناً !

فلجأ إلى المساجد يُعلّم فيها الصغارَ صباحاً ، ويُدرّس الكبارَ مساء ، متطوّعاً لوجه الله ... ومن عجبٍ أن السيّاحَ الأجانب كانون يُقبلون إلى « الجامع الأخضر » ،

حيث يُدرِّس ، فيشهدون حلقاتِ العلم ووفرةَ الطلابِ ، فيتمَّون ذلك من « عناية الحكومة بالمساجد الإسلامية ، وتركها حرية التعليم للمسلمين » !

★★★

ذلك الرجل هو :

« عبد الحميد بن باديس » .

وأصبح يحـــقّ للإدارة الفرنسية في الجزائر أن تعتقل أي جزائري تشكّ في ولائه للسلطة ، وتصادر أمواله وأملاكه وتطردُه خارج البلاد !



ليل طويل

منذ وطئت قـــدم الإستعمار الفرنسي أرض الجزائر العربية ، عام ١٨٣٠ ، وهو يعمل جاهداً على محو خصائص هذا الشعب القومية والروحية جميعـــاً ... وذلك تمهيداً لضمّ هذا القطر إلى فرنسا وجعله جزءاً منها !

إلاّ أن هذا الشعبَ المناضلَ مـا كان ليستكينَ لهذا الذي يُعِدُّه له المستعمر الباغي . فقامت الثورات في البلاد ، وكانت أولها مقاومة الإحتلال المضنية التي تزعّمهـا الأمير

عبد القادر الجزائري ، ثم تلتها ثوراتٌ عديدة ، هنا وهناك من أرض الجزائر الشاسعة .

دخل الفرنسيون الجزائر مستعمرين . ولكنهم كانوا كلما نشبت ثورةٌ واشتدّ لهيبها ، لوّحوا للشعب بما سمّوه مبدأ « الحرية والمساواة في حظيرة الاخاء الفرنسي » ! وما كان ذلك ليخفّف من التضييق والقهر والمعاناة التي يعيش في ظلها الجزائريون .

ثم جاء الامبراطور نابليون الثالث ، فأصدرَ ، سنة ١٨٦٥ ، مرسوماً أعلن فيه مساواة الجزائريين بالفرنسيين في الحقوق والواجبات مع السماح لهم بالرجوع في أحوالهم الشخصية إلى أحكام الشريعة الإسلامية ... وقد زار الامبراطور بلاد الجزائر ، وألقى خطبته الشهيرةَ ، التي استهلّها بقوله :

– إنني أُعدُّ نفسي امبراطورَ العرب ، مثلما أنا امبراطور الفرنسيين ، وكلهم في نظري متساوون .

ولكن هذه « المساواة » – التي أصبح ينشدها أبناءُ الجزائر تحت كابوس هذا الإستعمار الرهيب – ما كانوا

ليحظوا بها ... ذلك أن « المُعَمِّرين » (وهم أبناء فرنسا الذين نزحوا منها إلى الجزائر لإستغلال خيراتها وامتصاص دماء أبنائها) بذلوا كلَّ جهدهم في مقاومة سياسة نابليون ، مبرهنين في ذلك على تفضيلهم مصلحتهم الخاصة على مصلحة فرنسا نفسها .

ثم أن الامبراطورية سقطت بعد سنوات قليلة ، وأُعلنت الجمهوريةُ الثالثة ... فماذا كان حظُّ الشعب الجزائري المنكوب من نظام الحكم الجديد ؟

قام « غامبيتان » الرئيسُ الجديد ، بعملين خطيرين ما كان لهما إلا أن يزيدا في استعباد هذا الشعب الأعزل .

فأما العمل الأول ، فهو « قانون كريمو » (وزير العدل اليهودي) ، هذا القانون الذي منحت فرنسا بموجبه يهود الجزائر صفةَ « المواطن الفرنسي » ، وذلك بقصد زيادة عدد الفرنسيين في البلاد ... على حين ظلت للجزائريين صفة « الأهالي » المحكومين !

ثم تلت هذا القانون إجراءاتٌ تعسفية أخرى زادت في تكبيل حرية الجزائريين واضطهادهم في عقر دارهم ،

ومنهـا مراسيم استثنائية أبعدوا بمقتضاها عن دائرة الحق العام ، حيث جعلوا تحت تصرف والي الجزائر العـام (الفرنسي) ، فأصبح من حق الادارة الفرنسية في الجزائر أن تعتقلَ أي جزائري يُشَكُّ في ولائـه للسلطة ... وليس هذا وحده ، بل مصادرة أمواله وأملاكه وطرده من وطنه ... وأضافَ هذا الطاغي الاستعماري أن منَعَ حكومة باريس والبرلمان الفرنسي مـن حق التدخل في أعمال الولاية العامة في الجزائر فيما يتعلق باضطهاد الأهالي ، وذلك لتوطيد دعائم الحكم الإستعماري المطلق في الجزائر .

فدخلت الجزائرُ ، بذلك ، في ليلٍ طويل من الاستعمار المطلق ، دامسِ السواد ، بغيض .

★★★

والشعبُ العربي الجزائري ، منذ أن خلقه الله ، شعبٌ حرٌ أبي لا يسكت على ضيمٍ أو ذل .

وهاهي ذي الأغلال في يديه ، وحرابُ المستعمر القاسي الفؤاد مسدّدةٌ إلى صدره .

والشعبُ البطل قد يسكت على الظلم قليلاً ، ليستردَ

نفاسه ويستجمع شجاعته ... ولكنه سرعان ما يهب في ثورة جديدة أشد مضاء من ثورته الأولى .

وهكذا اندلعت ثورةٌ كبرى في البلاد بعد هـــذه الإجراءات الظالمة المفروضة على الشعب ... واتسع نطاقها حتى شملت عمـــالة الجزائر ، ومقاطعة قسنطينة ، وبلاد زوارة ، وقد تزعمها « الحاج محمد المقراني » و « الشيخ محمد الحداد » .

واستمرتْ هذه الثورةُ الخطيرة أشهراً ستة ... ولسنا نطمح – مع ظلمة هذا الإستعمار الرهيب – إلى أن يحقق الجزائريون النصر المؤزر على عدو يملك الحديدَ والنار وكل أفانين القتل والدمار .

ولكن المهمَ أن يُثبتوا لأنفسهم أنهم شعبٌ تنبضُ الحياة في عروقه ، وإذا أخفق اليوم في جولته ، فعسى أن ينتصر في الجولة القادمة .

وأسفرت هذه الثورة الدامية عن عشرين ألف قتيل من جُند الفرنسيين ، يقابلها ألف شهيد من أبناء الجزائر العربية .

واستشهدَ زعيمُ الثورة الحاج محمد المقراني يوم ٥ مايو (أيار) ١٨٧١ .

وأُعدم ستة آلاف من الثوار بعد الإستسلام .

ونُفي قادتُهم ، ومعهم خمسمائة من أعيان الثوار ، إلى جزيرة « كاليدونيا » في المحيط الهادي ، وظلوا في المنفى القصيّ حتى ماتوا جميعاً !

أما الجزائر الثائرة ، فقد حُكمَ عليها بغرامة قدرها ستة وثلاثون مليون فرنك ... ولما عجزت القبائل عن دفعها ، قررت الإدارة الفرنسية مصادرة أملاكهم وترحيلهم عن أراضيهم ليحل فيها مأجورو الألزاس واللورين[1] .

***

أخمدت هذه الثورة .

ولكن ما لبثت أن أعقبتها ثورةٌ أخرى في عمالة وهران ، هذه المرة بزعامة « سليمان بن حمزة » ، واستمرت خمس سنوات .

---

(١) مقاطعات فلاحية فرنسية .

ثم ثورة جديدة في قبائل المهرانية بزعامة « الشيخ أبي عمامة المراكشي » ، واستمرت ثلاث سنوات .

وهكذا أثبت الجزائريون ، في كل عقد من السنين ، أنهم شعبٌ حيّ لا يقهر ... وقد أدرك المستعمرُ هذه الحقيقةَ ، ولكنه كان يسعى دائماً إلى أن يقتل الحياةَ في عروق هذا المارد ، قصد أن يخضع ويستكين .

ومع انقضاء القرن التاسع عشر ، وإطلالة القرن العشرين ، بدأت الأقلام الجزائرية تكتب مطالبةً بالمساواة . ذلك أنه قد آن أن يتكوّن الرعيلُ الأول من المثقفين العصريين الذين درسوا في فرنسا وعادوا إلى بلادهم ، وأخذوا يبحثون عن وسائل لتحسين حالة أمتهم وزحزحة اليد الحديدية الجاثمة على الصدر .

وتشكلت في الجزائر حركاتٌ سياسية متعددة ، وكان همّها إصلاحَ الأحوال الاجتماعية وأن يحصلَ الشعبُ على كامل حقوقه .

والسلطاتُ الفرنسية تسمع بأذن واحدة لهذه المطالبة وتَعِدُ ، ثم تنقضُ وعودهـا ، وتعمد إلى القمع ، وإلى

الترغيب والترهيب ... فسادت البلادَ حالٌ هي أقرب إلى اليأس والإستسلام ، لولا رجالٌ عاهدوا الله والوطن على العمل من أجل إنقاذ الشعب من هذا الليل الطويل !



حفظ القرآن صغيراً ، فاختار له أبوه أحدَ الشيوخ ليُعلّمه المعارفَ الإسلامية والعربية ، ثم ما لبث أن تزوّج وله من العمر خمسةَ عشر عاماً . وتخرّج من جامع الزيتونة بتونس ، وحجّ إلى بيت الله الحرام ، وزار بعضَ البلاد العربية ، ثم عاد إلى قُسنطينة ممتلئاً عزماً وحماسةً لخدمة الدين والوطن .

شاب من قسنطينة

كان الشعب الحي يثور ، منـاضلا في سبيل حقه في البقاء .

وكان يقدّم الساعدَ المحاربة ، والنفوسَ الأبية ... كان ما يفتأ يَلِدُ الرجال .

ومن هؤلاء الرجال : « عبد الحميد بن باديس » .

***

ولد ، في مدينة « قسطنطينة » (شرقي الجزائر) ،

سنة ١٨٨٩ (١٣٠٨ هجرية) ، في أسرة عُرفت بالعلم والثراء والجاه .

وترجعُ الأسرة في أصولها إلى المعز بن باديس الصهناجي ، مؤسس الدولة الصهناجية الأولى ، التي خلعت الأغالبة عن مملكة القيروان .

وقد تميز كثيرٌ من أجداده بالعلم ، ومنهم « أبو العباس ابن باديس » من كبار قضاة قسنطينة وأكثر علمائها شهرة .

والأبُ هو « محمد المصطفى بن مكي بن باديس » ، عضو في المجلس الجزائري الأعلى وعضو في المجلس العمالي .

وأمه « زهيرة » من أسرة مشهورة في قسنطينة هي أسرة « عبد الجليل » .

***

حفظَ عبد الحميد القرآن ، وأتمّه في السنة الثالثة عشر من عمره .

فاختار له أبوه أحد الشيوخ الصالحين من ذوي المعارف

الإسلامية والعربية ، هو الشيخ « حمدان لونيسي » فأخذ يعلّمه بجامع « سيدي محمد النجار » مبادىء العربية والمعارف الإسلامية ويوجهه وجهةً علمية أخلاقية .

وفي سنة ١٩٠٤ زوّجه والدُه صغيراً (له من العمر خمسة عشر عاماً) .

ومـا هي إلا أعوام حتى أتمّ دراسته في قسنطينة ، فسافر إلى تونس سنة ١٩٠٨ ، وانتسب إلى « جامـــع الزيتونة » ، وأخذ يتلقى الثقافة الإسلامية العربية ، ويأخذ عن جماعة من أكابر علماء الزيتونة أمثال : « محمد النخلي القيرواني » و « محمد الطاهر بن عاشور » اللذين يعتبران زعيمي النهضة الإصلاحية في تونس ، فهما من أنصار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده .

وما لبث أن تخرج « بشهادة التطويـع » بعـد أربـع سنوات ، وعلّم سنة واحدة في جامع الزيتونة ، على عادة المتخرجين في ذلك الوقت .

وعاد إلى قسنطينة سنة ١٩١٢ .

وقد روى « عبد الحميد » فيما بعد ، حكاية نصيحةٍ أو

وصيةٍ كان أوصاه بها مؤدبهُ في قسنطينة الشيخ حمدان لونيسي، الذي علّمه مبادىء العربية والمعارف الإسلامية، وأخذ منه عهداً على تحقيقها.

فكان لذلك العهد – كما يقول عبد الحميد فيما بعد – «أثرٌ في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله، فأجدني مديناً لهذا الرجل بمنّةٍ لا يقوم بها الشكر، فقد أوصاني وشدّد عليّ أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حُييت، ولا أتخذ علمي مَطيّةً لها، كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت».

وإنما قصدَ مؤدبُه في ذلك أن تتاح لتلميذه فرصةُ التفرغ لخدمة دينه وأمته، وأن ينأى به عن كل تأثير خارجي قد يفسد عليه حكمه، أو يبعده عن غايته، فيميلُ به عن جانب الحق.

وقد نفّذ التلميذُ هذا العهدَ، وحقق في مستقبله هذا الذي قصد إليه أستاذهُ، بل إنه مضى ينصح كلّ من يتوسم فيه الخيرَ من تلاميذه هذا النصح، ويأخذ منهم

مثل العهد الذي أعطاه لإستاذه الشيخ ، الذي كان قد رحل إلى الحجاز واستوطن بها .

***

عاد « عبد الحميد بن باديس » إلى قسنطينة ممتلئاً عزماً وحماسةً لخدمة الدين والوطن .

ثم لم يلبثْ أن عقدَ العزمَ على أن يحجّ إلى بيت الله الحرام وللقاء شيخه حمدان لونيسي في الحجاز .

وقد أتيح له ، وهو في الأراضي المقدسة ، أن يقومَ بإلقاء درس في الحرم النبوي على مشهد جمهور من المسلمين وبحضور الشيخ حمدان ... فزاده ذلك اعتزازاً بدينه وثقة بنفسه وعزماً على خدمة الأمـة بكل ما يملك من فكر نيّر وعزم مكين .

ثم مرّ ، في عودته ، بدمشق فالقاهرة .

ويمكن القول إن ابن باديس قد أتمّ دراسته العلمية ، بهذه الرحلة في بعض البلاد العربية ، والالتقاء ببعض علماء الدين ، واستطاع أن يغمر نفسه المتوثبة في تيار الحركة

السلفية التي ازدهرت في المشرق على يد كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي . كما ازداد معرفةً بالأوضاع الإجتماعية والسياسية والثقافية ، مما وسّع أفقه وبصره بطريق الخلاص لشعبه المعذّب الذي ينتظره في الجزائر ...

فما هو طريق الخلاص ؟

الاعتداء من كل الجهات

وما هي حقيقة الأوضاع الإجتماعية والفكرية في الجزائر وشمال إفريقية عموماً ؟

أول ما لاحظـه « ابن باديس » أن « الصوفية » ، بمختلف طرُقها ، تسود إفريقية الإسلامية كلها تقريباً .

وحتى نتبـينَ حقيقة الموقف الذي اختاره ابن باديس الشاب ، علينا أن نُعرّف بالطرق الصوفية :

ما هي ؟ وكيف كانت ؟ وما آلت إليه ؟

***

الواقع ، لقد استطاعت الطرق الصوفية أن تنهضَ في المغرب العربي بدور هام وخطير .

وقد قامت بدورها الإيجـابي – في البداية – ونشرت الإسلام في القارة الافريقية على نحو أذهـل المستعمرين وأقضْ مضاجعَهم . فبينما كانوا هم يرسلون المبشّرين إلى أواسط إفريقية ، فيكلفهم ذلك النفقاتِ الباهظةَ من أجل التبشير للمسيحية وتنصير الزنوج ، فان أتباع الطرق الصوفية الإسلامية كانوا يتطوّعون للعمل على نشر الإسلام ، ويُفلحون في ذلك أيما فلاح ، وذلك عن طريق التعليم الذي يقومون بـه لأولئك الزنوج الذين كانوا وثنيين ، فتحولوا – بفضل هؤلاء الدعاة – إلى مسلمين مخلصين

على أن هـذه الطرق (ومنها : التيجانية والعليوية والدرقاوية) لم يقتصرْ دورها على توسيع دائرة الإسلام في القارة السوداء ، بل إنها هي التي حفظت الإسلام في إفريقية العربية نفسها ، في عصور الجهل والظلمات ، بما

قام به رجالها الكاملون الأولون من تأسيس الزوايا (الرباطات) ، يُعيدن فيها الضالين إلى سواء السبيل ، ويقومون بتعليم الناشئة ، وبث العلم في صدور الرجال .

ويمكن القول : أنه لولا تلك الجهود التي بذلوها ، لعلنا ما كنا لنجد ، الساعة ، في تلك البلاد أثراً للعربية ولا لعلوم الدين ، فالزوايا الكبرى هي التي كوّنت دائماً هناك طبقةً فاضلة من العلماء والفقهاء وحفظة القرآن الكريم ، وكانت وساطةً فعليـة في نقل الإسلام إلى بلادي أقاصي الجنوب والسودان .

***

قلنا : هذا في عهد رجال الصوفية الكاملين الأولين .

ولكن إلامَ آلت هـذه « الطريقة » ، في الفترة التي عاشها ابن باديس ؟

لقد انحرفت إلى البدع والضلالات والخرافات ، واخترع أصحابُها أعمالاً وأوضاعاً وعقائدَ ، ظنوا أنهم يتقربون بها إلى الله ، على غرارِ ما فعل المشركون في الجاهلية من عبادة الأوثان والذبح عليها ..

احترفت طوائف منهم « الرقص والزمر والطواف حول القبور ، والنَّذْر لها ، والذبح عندها ، ونداء أصحابها ، وتقبيل أحجارها ، وحرق البخور عندها ، وصبّ العطور عليها ... » وذلك مخالف لسنة رسول الله .

رأى ابن باديس العامةَ « يَدْعُون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات ، يسألونهم حوائجهم ، من دفع الضُّر ، وجَلْب النفع ، وتيسير الرزق ، وإعطاء النسل ، وإنزال الغيث ... ويذهبون إلى الأضرحة ، ويدقّون قبورهم ويَنْذُرون لهم ... وتراهم هناك في ذلّ وخضوع وتوجّه قد لا يكون في صلاة مَنْ يُصلّي منهم »، وهذا هو الشِّرْك الخفي ، وعبادة الأولياء .

ذلك ما نشرته الطرقية في البلاد من البِدَع ، فصرفت العامةَ عن فهم حقيقة كتاب الله .

زِدْ على ذلك أنه كان لرجالِ بعض هذه الطرق مواقفُ متخاذلةٌ تجاه الإستعمار الوافد على البلاد . فقد هادنوه ، بل إن منهم من وقف إلى جانبه وأيّده ، كما فعل أصحاب الطريقة التيجانية ، الذين قاوموا الأمير

عبد القادر الجزائري في نضاله ضد فرنسا خلال معاركه الطويلة !

وإن الصحافة الإستعمارية لتستشهد بأقواله بعض عملائها ممن نزلت على أعينهم الغشاوة :

« إذا كنا أصبحنا فرنسيين ، فقد أراد الله لنا ذلك وهو على كل شيء قدير . فإذا أراد الله أن يكسح الفرنسيين من هـذه البلاد فعل ، وكان ذلك عليه أمراً يسيراً ... ولكنه كما ترون يُمِدُّهم بالقوة ، وهي مظهر قدرته الإلهية ، فلْنحمدِ الله ولْنخضعْ لإرادته » !

وهذا تخاذلٌ وتواكلٌ وخنوعٌ تأباه الأديان والمبادىء الإنسانية كلها ، ناهيك عن الإسلام الذي يحضّ على الجهاد في سبيل الله ، ذلك الجهاد الذي دانت له البلاد من مشرق إلى مغرب .

ورأى ابن باديس تلامذة المدارس ، التي أنشأها الفرنسيون ، يردّدون نشيداً هذه بعض كلماته :

كان أجدادنا من الغاليّين (أي الفرنسيين) .

وكانت بلادنا تسمى « غاليا » !!

***

رأى ابن باديس ، العائدُ من حجّ بيت الله ، هـذا ، ورأى ما هو أشدُّ مرارة .

الأمةُ تسبح في دياجير ظلام !

واللسانُ ، يجتهد المستعمر أن يجعله فرنسياً !

والدينُ الإسلامي يتوارى خلف سُجُوفٍ كثيفةٍ من البدع والإنحراف .

والأعداءُ متكالبون على الأمـة : المستعمرون بحديدهم ونارهم ، والرجعيون بما أشاعوه بين العـامة من خرافات وبارتمائهم في أحضان المستعمر ..

وذلك من بعض حصيلة الإستعمار الفرنسي ، الذي قضى على المراكز الثقافية المزدهرة في الجزائر منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وأغلق نحواً مـــن ألف مدرسةٍ ابتدائية وثانوية وعالية كانت قائمة في البلاد قبل بـــدء الاحتلال في سنة ١٨٣٠ ، يَؤمّهـا نحوٌ من مئة وخمسين

ألف طالب ... وأما الآن ، فلا تسمح السلطات الإستعمارية بفتح المدارس العربية إلا إذا كانت « مدارس قرآنية » ، بل هي لا تسمح بفتح المدارس القرآنية إلا بشروط مهينة ، منها :

أن يقتصرَ التدريسُ على حفظ القرآن لا غير ، مع عدم التعرُّض لتفسير آيات القرآن ، وبخاصة الآيات التي تدعو إلى التحرر ومقاومة الظلم والاستبداد ، وعدم دراسة تاريخ الجزائر والتاريخ العربي الإسلامي ، وجغرافية القطر الجزائري والبلاد العربية ، وعدم تدريس المواد العلمية والرياضية !

فأوشك الاستعمار الفرنسي أن يدمّر بذلك العقل والروح ، حتى لقد قال أحدُ الكتّاب الفرنسيين ، بعد أن عَدّد كثيراً من المظالم التي لحقت بالشعب الجزائري :

« قضينا على مؤسساتِ الإحسان ، وتركنا المدارس تتهدم ، وشتّتنا الطلاب ، فانطفأت الأنوارُ حولنا ، وانقطع تخريج رجال القانون ... ومعنى ذلك أننا رَدَدْنا المجتمع الإسلامي أكثر بؤساً وهمجيةً مما كان عليه قبل أن يعرفنا » !

***

هذه هي الحالة التي واجهها الشاب عبد الحميد بن باديس ، وله من العمر ثلاثة وعشرون عاماً .

وكان عليه أن يبدأ العمل .

وقد بدأ .

***



وعزم ابنُ باديس على أن يُربّي نشأً جديـداً طاهراً ، يُعلّمه العربية ويُدرّسه القرآن فيتخلّق بأخلاق الإسلام ويتحلّى بحميّته ، فيغدو بذلك سلاحاً لا يفلّه الحديد والنار .

أمل الأمة المرجو

أخذ ابن باديس بنصيحة شيخه حمـــدان لونيسي ، فلم يتوظـّف . وكان له من ثراء أسرته ما يُغنيه عن راتب الوظيفة وذلّ الارتباط بحكومةٍ مستبدةٍ قد أخذت على عاتقها أن تمحو خصائص الشعب العربي الجزائري .

ولكنه يريد أن « يعلّم » الناس .

وهو – إن لم يعلّمهم براتب – يريد أن يعلّم بالمجان .

وهكذا اتجه إلى المساجد .

وابتدأ بأن أخذ يعلّم تلاميذ الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها. ثم لم يلبث، بعد بضع سنوات، أن أسّس مع جماعة من الفضلاء، مكتباً للتعليم الابتدائي، في أحد المساجد.

لماذا اتجه ابن باديس إلى الصغار؟

لقد وجدهم البراعمَ الغضّة النَضِرة، الذين لم تفسدْهم بِدَعُ الرجعيين ولا تخاذلُ الذين سبقوهم في العمر... فهم على ذلك أملُ الأمةَ المرجوّ وغدُها الذي سيشرقُ مهما طالت ظلمة الليل.

كان الإستعمار قد أخذ الشملةَ في نفوسِ الناس — أو هكذا خُيّل إليه — بعد عشرات السنين من عمر الإستعمار الظالم. وكان تأييد الرجعية الغبية قد جعله يُغمِضُ العينَ عما بدأ يقوم به — في غفلة منه — ابن باديس وإخوانٌ له عاهدوا الله على أن يقوموا بدورهم في إنقاذ شعبهم المستضعف.

كانت خطة ابن باديس خفيـة، إلى حدٍّ أن الإستعمار لن يفطن إليها... فإذا آن أن يفطن، فإن

ابن باديس يكون قد أنجز منها ما يجعلها جديرة بالبقاء والثبات .

كان من خطة ابن باديس أن يضرب أعداءَ الشعب ، عدواً بعد آخر .

فإلى مَنْ يُسَدِّدُ الضربةَ الأولى ؟

وبأية يد ؟

وهو الفرد ، أو هم الأفراد القليلُ عددهم ؟

لقد فكر في أن يربّي نشأً جديداً طاهراً ، ينتزعه من بين براثن الرجعية ، عدوّه الأول ... عزم على إعدادِ جيلٍ صالح يتعلم العربية ، ويدرس القرآن ، ويتخلّق بأخلاق الإسلام ويتحلّى بحليته .

وذلك سلاحٌ – لو يدري المستعمر – لا يفلّه الحديدُ والنار .

وبتربية هذا الجيل التربيةَ العربية الإسلامية ، يكون قد جرّد الرجعية من بعض سلاحها ، لا بل من معظم سلاحها ، وغدا هذا السلاح في يدٍ أمينة ، مكرّساً لخدمة القضية الوطنية ..

أخذ ابن باديس يسهر على إعداد جيل ، ينهض نهضةً إسلامية يأخذ فيهـــا من عظمة الماضي العربي ، مستفيداً العبر مـــن الحاضر الصعب ، ويسير في طريق المستقبل المشرق ، وقد استمدّ قوته كلها من العودة إلى القرآن ، دستور العرب الأعظم ، الذي عرّبوا به الأمصار ونشروا العدل والنور .

***

وإنّا لنرى الإستعمار - رغم جبروته وغطرسته - ذا غفلةٍ وغباء وعماء بصيرة .

فعلى حين ظل ابن باديس يعمل في مجـــال التدريس وبناء جيل الثورة ، كان المستعمر سعيداً باعتماده على طبقةٍ كثيفةٍ من أتباع الطرق الصوفية والعلماء الرسميين ، يراها درعاً واقياً له من أيـة يقظة يمكن أن تنبعث من هنا أو هناك .

وهل أبعث على اطمئنان الإستعمار من أحـد رؤساء الطرق هؤلاء ، المتخاذلين الأذلاّء الذين خوَت قلوبهم من كل إيمان ونَضَب من وجوههم ماءُ الحياة ، يقف أمام قائد فرنسي كبير ويخطب قائلا :

– إن من الواجب علينا إعانةَ حبيبة قلوبنا فرنسا ، مادياً وأدبياً وسياسياً ! إن أجدادي قد أحسنوا صنعاً في انضمامهم إلى فرنسا من قبل أن تصل إلى بلادنا ! (ويقول متباهياً) لقد أظهر أحدُ أجدادي ، في سنة ١٨٣٨ ، شجاعةً فائقة في مقاومة أكبر عدو لفرنسا عبد القادر الجزائري !..

طبعاً ليس جميعُ رؤساء الطرق من قبيل هذا المتخاذل. إن من أتباعها من اشتعل حماسةً في مقاومة فرنسا ... ولكن الاستعمار كان يرتاح جداً لمثل هذه الروح الإنهزامية المستسلمة ، ويرى فيها تحقيقاً لما يرمي إليه من القضاء على العروبة والإسلام في القطر الجزائري المنكوب ، تمهيداً لجعله جزءاً من « من التراب الفرنسي » !

★★★

وعلى حين أخذ ابن باديس وأعوانه في تعليم الصغار لغتَهم ودينهم وإحياء معاني القرآن في عقولهم وعزةِ العروبة في صدورهم ... كانت حركةُ المقاومة السياسية في الجزائر قد اتخذت لها – تحت الضغوط الاستعمارية – وجهين اثنين أحلاهما مرّ :

جماعة ترحّب بالإندماج التام مع فرنسا ـ الأم ، ومنها كثيرٌ من الشبان الذين فتحوا أعينهم على عظمة فرنسا الوهمية ، وجهلوا كل شيء من تاريخ أمتهم المجيدة ، إلا ما التقطوه من كتابات المستشرقين الذين يدسّون السم في الدسم ، وجماعة أخرى تنادي بالمساواة السياسية بين الجزائري والفرنسي ، على أن يظل للجزائريين حقّ التعامل بالقانون الإسلامي (بالنسبة لأحكام الأحوال الشخصية ، من زواج وإرث ..)

وأما فرنسا ، فكانت تسمع ، وتأخذ ، وتعطي وعوداً وأكاذيب .

وأما ابن باديس فكان يرفض كل هذه المواقف ... لأنه كان قد أخذ على عاتقه أن يفعل شيئاً آخر مختلفاً .

يصنع جيل الثورة : أمل الأمة المرجو !

***

« إننا سننقد كلّ من يتولّى شأناً عاماً ، من أكبر كبير إلى أصغر صغير ، من الفرنسويين والوطنيين، ونناهض المفسدين والمستبدّين من الناس أجمعين ... وشعارنا الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء ».

« ابن باديس »

ابن باديس ... صحفياً

أحس ابن باديس ، بعد سنوات من الجهد الدائب بَذَله في التعليم ، أنه قد بات يقف على أرض صلبة ، يستطيع منها أن يخطوا إلى الأمام خطوة أخرى .

هو علّم الأولاد اللغةَ والدين ، وفسّر لهم — رغم أنف السلطة — من فوق منبره في المسجد ، القرآنَ وبيّن تعاليمه فملأ قلوبهم غَيْرةً ونفوسهم حَمِيَّة .

وهو — بعدُ — يريد أن يُوسّع دائرة تعليمه ، أن يتوجّه

إلى عددٍ أكبر من الناس : أن يستخدم القلم بعد اللسان .

بات عليه أن يعمل صحفياً ، دون أن ينقطع عن التعليم .

وأسس جريدة .

وابن باديس غيرُ مهادن . إنه مُنتقِد . فلْيُسَمِّ الجريدة « المنتقد » .

وقد صدر عددها الأول في قسنطينة يوم الخميس ٣ جويليه (تموز) ١٩٢٥ (١١ ذي الحجة ١٣٤٣ هجرية).

وكتب « الإفتتاحية » وعنوانها « مبادئنا وغايتنا وشعارنا » ... قال فيها :

« بسم الله ، ثم باسم الحق والوطن ، ندخل عام الصحافة العظيم ، شاعرين بعظمة المسؤولية التي نتحملها فيه ، مُستَسْهلين كلَّ صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون .. وها نحن نعرض على العموم مبادئنا التي عقدنا العزم على السير عليها ... » .

اسلوبٌ سائغ ، ترى فيه روحَ المعاصرة شكلاً ومضموناً: « ندخل عالم الصحافة العظيم » ... إنه رجلٌ عصريٌ منفتحٌ على مُعطَيات الحضارة ، يؤمن بالصحافة وسيلةً تنير

الدرب ، سريعُ التطور ، مع حرصه على ان يطل من مقربة على النبع الثـرّ : الإسلام .

وهو إذ يخوض العمل الصحفي ، يدرك تمام الإدراك أن ممارسة الصحافة هي من قبيل ممارسة السياسة ... وممارسةُ السياسة في بلد كالجزائر ، غارقٍ في الإستعمار حتى قمة الرأس ، تحتاج إلى الكياسة ، إلى منتهى الكياسة ... وعَهْدُنا بإبن باديس يرسم الخطط ويحقّـقها في براعة . والآن ينتقل إلى العلانيـة ، ولكن الحـــذَر ، « التّقِيّة » مطلوبان ، وإلاّ سارعت السلطة الإستعماريـة إلى كمّ الفم ، وإغلاق الجريدة ، وقطع اللسان !

قال :

« نحن قومٌ مسلمون جزائريون ، في نطاق مستعمرات الجمهورية الفرنسوية . فلأننا مسلمون نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا التي تدعو إلى كل كمال إنساني ، ونحرص على الأخوة والسلام بين شعوب البشر ..

« إن الدين قوةٌ عظيمة ، لا يُستهان بها ، وإن الحكومة التي تتجاهل دينَ الشعب تسيء في سياسته ، وتجلب عليه وعليها الأضرار ... » .

ثم يمضي إلى تقريع الاستعمار تقريعاً ناعماً :

« إن الأمة الجزائرية قامت بواجبها نحو فرنسا في أيام عُسْرها ويُسْرها . ومع الأسف لم ترَ الجزائرَ نالت على ذلك ما يصلح أن يكون جزاءها . فنحن ندعو فرنسا إلى ما تقتضيه مبادئها الثلاثة التاريخية « الحرية والمساواة والأخوة »، من رفع مستوانا العلمي والأدبي ، بتعميم التعليم ، وتشريكنا تشريكاً صحيحاً – سياسياً واقتصادياً – في إدارة شؤون وطننا الجزائري . » .

ثم يعلن « مبدأه الإنتقادي » ، قائلاً ؟

إننا سننتقد « الحكام والمديرين والنواب والقضاة والعلماء ، وكل من يتولّى شأناً عاماً ، من أكبر كبيرٍ إلى أصغر صغير ، من الفرنسويين والوطنيين ، ونناهض المفسدين والمستبدين من الناس أجمعين . » .

ويقول :

« هذه مبادئنا . وسيرضى عنّا بها الأحرار المفكرون أصحابُ الصدور الواسعة والقلوب الكبيرة ، من الوطنيين والفرنسويين . وسيغضب بهـا علينا المستبدون الظالمون والدجّالون ، المحتالون وصغار الأدمغة وضيّقو الصدور من بغاث البشر » .

ها هوذا قد أعلن ما أراد ، لم يبق إلا أن يختم مقاله بشعار جريدته ، وهـــو شعارٌ صارخ يتحدّى الإستعمار والطغيان:

« الحق فوق كل أحد ، والوطن قبل كل شيء » .

ولكن السياسة كانت تُملي عليه أن يُمهّد لشعاره بقول يخفّف من وَقْعِهِ على نفوس المستبدين . قال :

إن « غايتنا السامية هي : سعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديموقراطية » !

★★★

على أن الإدارة الفرنسية تنبّهت إلى خطر هذا المصلح الذي بدأ يهاجم أعوانها ، فأصدرت قراراً بتعطيل الجريدة وما صدر منها إلا ثمانية عشر عدداً .

ذلك ما فعلته السلطة .

فماذا فعل ابن باديس إزاء ذلك ؟

أسرع يصدر جريدةً غيرها .

وقد سماها « الشهاب » .

خفّف فيها من لهجته ، واصطنع نوعاً آخر من المرونة السياسة : فقد كان حريصاً على أن يوصل صوته إلى الجماهير.

وإذا كان لم يقصّر في « الشهاب » أيضاً في فضح الطرق الصوفية وبيان مخالفتها لروح الدين ، فإنه قد عمد إلى أن يُضفي على جريدته طابعاً دينياً واضحاً ، بأن ينشر فيها بعض دروسه في التفسير وشرح الأحاديث ، مع تطبيقها في مهارةٍ فائقة على الواقع الجزائري ... فحَمَى الجريدةَ من التعطيل ، حتى لقد تابعت صدورها منذ سنة ١٩٢٦ إلى يوم وفاته .

وهاك نموذجاً مما كان يُسعِفُه به خياله وأدبه ودينه .

قدَّم وصايا إلى « المسلم الجزائري » مما تقتضيه إنسانيته ويفرضه دينه وتستدعيه مصلحته في هاته الحياة ...

يقول فيما يقول :

● إحذَرْ من دجّالٍ يُتاجر بالرُّقي والطلاسم ، ويتّخذ آيات القرآن وأسماءَ الرحمن هُزّوءاً يستعملها في التمويه والتضليل والتفريق ..

● حافظْ على حياتك . ولا حياةَ لك إلا بحياة قومك ووطنك ، ودينك ، ولغتك ، وجميل عاداتك . وإذا أردت الحياة لهذا كله ، فكن ابنَ وقتك ، تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يُناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل .

• كنْ عصرياً في فكرك ، وفي عملك ، وفي تجارتك ، وفي صناعتك ، وفي فلاحتك ، وفي تمدنك ورقيّك .

• كن صادقاً في معاملاتك ، بقولك وفعلك .

• إحذَرْ من الخيانة ! الخيانة المادية في النفوس والأعراض والأموال ، والخيانة الادبية ببيع الذمة والشرف والضمير .

• إحذَرْ من التعصب الجنسي المقوت ، فإنه أكبر علامة من علامات الهمجيّة والإنحطاط .

• كن أخاً إنسانياً لكل جنسٍ من أجناس البشر ، خصوصاً ابنَ جِلدَتك المتجنّس بجنسية أخرى ، فهو أخوك في الدم الأصلي .

• كن محسناً لكل أحد ، من كل جنسٍ ودين . فدينك الشريف يأمرك بالإحسان .

★★★

فأنت ترى ، أيها القارىء العزيز ، إلى أي حد يتسامى ابن باديس ، الذي نهل من وِرْدِ القرآن ، وعبَّ من تعاليمه السامية حتى ارتوى ، عندما يُقدّم هذه النصائح الذاتية ، القومية ، الدينية ، الأممية .

على أن هذا الرجل ، الذي توافرت في شخصه صفاتُ الإمام العالم ، كان موضع سخطٍ مـــن السلطة وأعوانها لا حدّ له .

وقد خيل إليهم أن في اغتياله قضاءً على دعوتــه في مهدها . فعهدوا إلى أحد أتبــاع الصوفية بتنفيذ الخطة ، وكان ذلك في سنة ١٩٢٧ ، عندما خرج على الإمام ، وهو عائدٌ إلى بيته في منتصف الليل بعد انتهائــه من دروس التفسير ، ليفتك به . غير أن الغادر لم يُفلح في ارتكاب جريمته ، فقبض عليه رجال ابن باديس .

وماذا كان جديرٌ بهم أن يفعلوا بهذا الغادر الجبان ؟

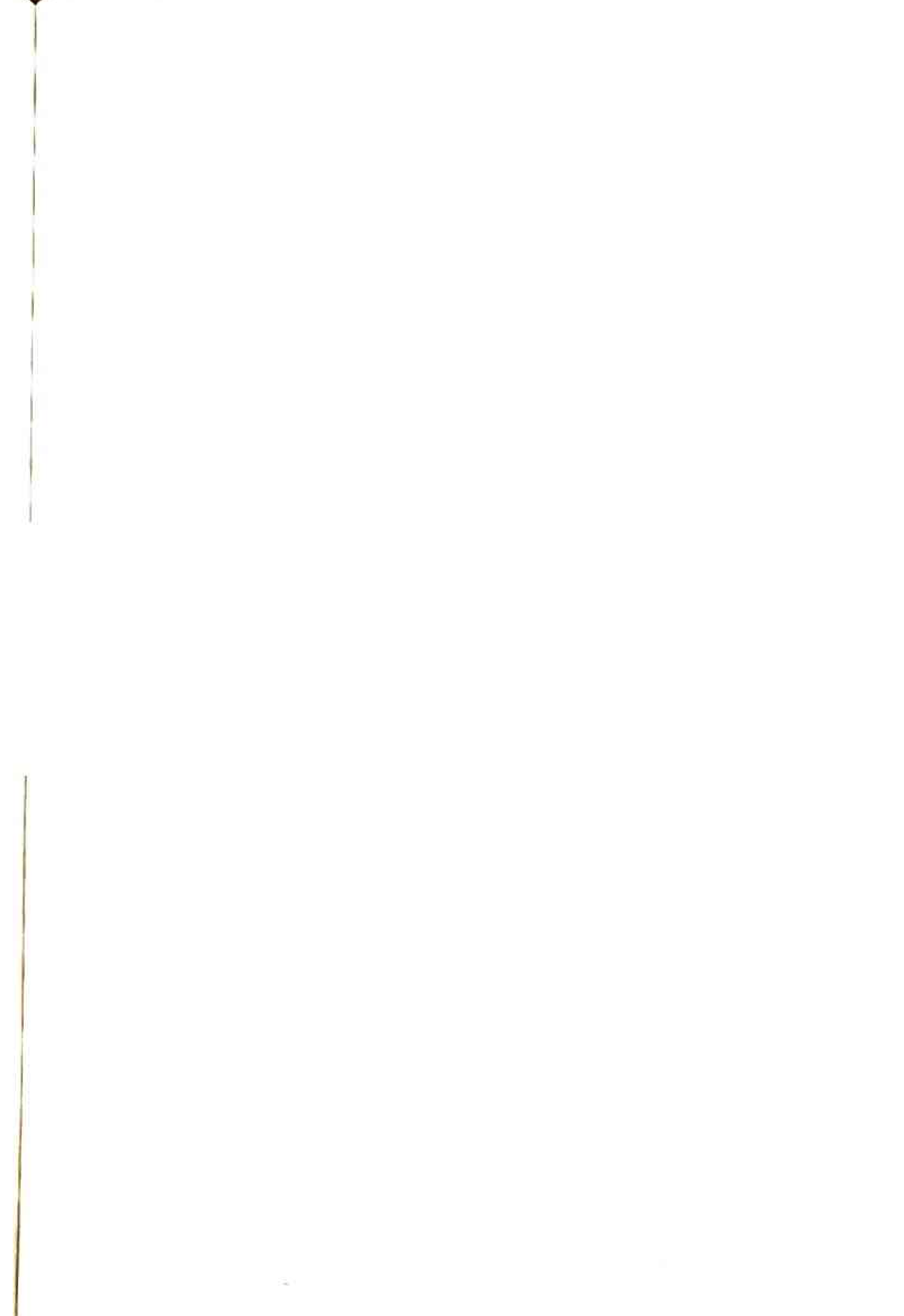
هل يفتكون به ؟

إن أخلاق الإمام ابن باديس السـامية جعلته يعفّ ويعفو ، وينهي أصحابه عن الفتك به ، متمثلاً بقول رسول الله :

ـ اللهم اغفر لقومي ، فانهم لا يعلمون ..

وطلب للكردينال « لافيجري » أن يخطب في الذكرى المئوية لاحتلال مدينة الجزائر ، فيقول :

« إن عهد الهلال قد ولّى ، وإن عهد الصليب قد بدأ ، وإنه سيستمرّ إلى الأبد ! » .



علماء الدين يتجمعون

كان بعض العلماء أسسوا سنة ١٩٢٦ ، في العاصمة الجزائر « نادي الترقـّي » ، فكان ملتقى المثقفين الذين سَرَت إلى نفوسهم دعوةُ القومية العربية الإسلامية . وكانت تلقى فيه المحاضرات وتقام الحفلات ، ويحاضر فيـه ابنُ باديس كلما جاء إلى العاصمة ، فيُلقي درسه في التفسير

في شهر جويليه (تموز) ١٩٣٠ ، كان قـد بلغ عمرُ الاحتلال الفرنسي لعاصمة الجزائر قرناً كاملاً ، فأقامت فرنسا ،

بهذه المناسبة ، في الجزائر احتفلات ... قدّرت لها أن تدوم ستة أشهر ، وأنفقت عليها ما يزيد على ثمانين مليون فرنك فرنسي .

وأعادت هذه الاحتفالات ذكرى جيش الإحتلال الأول الذي غزا الجزائر ، بملابسه وموسيقاه ، وحضر رئيسُ الجمهورية الفرنسي إلى الجزائر لرئاسة هذه الاحتفالات ... التي ما كان لها إلا أن تستفزُّ مشاعر الجزائريين ، وتُشعرهم بالذلّ والمهانة ، وتذكّرهم بمئات الألوف من الشهداء من آبائهم وأجدادهم الذين سقطوا في ميادين الجهاد المقدّس دفاعاً عن حرية البلاد .

وقد أسفرت خطب المسؤولين الفرنسيين في هذه الاحتفالات ، عن روحهم الصليبية المتطرفة الذين لا يزالون يَكنُّونها للعروبة والإسلام ، فما زاد ذلك الجزائريين إلا إحساساً بالقهر والمهانة : وطنٌ مستباح ، وأعداءٌ مقيمون ، والسياسة السائدة هي التجهيل والتجويع والتهجير ، أو « الفرْنسَة » ! وها هم الغاصبون يتباهون بأنهم قهروا وفتكوا وأذلوا !.. حتى أن كاردينالاً منهم يخطب فيقول :

– إن عهد الهلال قد ولّى ، وإن عهد الصليب قد بدأ ، وإنه سيستمر إلى الأبد !

★★★

في ظل هذه الاحتفالات القاهرة تكونت لجنةٌ تحضيرية ، في نادي الترقي ، مهّدت لتأسيس جمعية سميت باسم « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » ، التي تشكّلت من صفوة علماء الجزائر الذين ينتمون إلى مدرسة التجديد الإسلامي السّلَفية ، ممن لهم ماضٍ حافلٌ في خدمة الثقافة العربيـة ومقاومة مشاريع الإستعمار المبيّتـة ضد الشخصية القومية للشعب الجزائري ... مثل الشيخ عبد الحميد بن باديس ، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، والشيخ الطيب العقبي ، والشيخ العربي التبسي ، والشيخ مبارك الميلي .

واستكملت الجمعية كيانها القانوني في شهر ماي (أيار) ١٩٣١ ، واتخذت لها مقراً نادي الترقي في العاصمة .

وانتخبت رئيساً لها ... ومن يكون سوى عبد الحميد بن باديس ، الذي انتخبه زملاؤه للرئاسة بالإجماع وهو غائب عن الإجتماع ؟

وشمارها كان :

« الإسلام ديننا ، والعربية لغتنا ، والجزائر وطننا » .

ولم يكن بدٌ من أن ينصَّ العلماء في قانون هذه الجمعية ، على أنه ليس لها أن تخوض أو تتدخل في الأمور السياسية بأية حال من الأحوال ، وذلك ذرّاً للرماد في العيون ! على حين اكتظت مواد هـذا القانون بأهداف هي من الشؤون القومية والدينية في الصميم .

وكان أول ما اعتزمت الجمعية القيام به هو تنظيم الحملة للقضاء الحاسم على الطرقية ، وإنشاه المدارس العربية في مدن الجزائر وقراها .

وقد نادت بالدعوة إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين توحيداً لكلمتهم أمام الغاصب ، كما نادت بالكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بـين جميـع الأجناس والألوان وقـد حرص القائمون بالدعوة على تمجيد العقل وفكـّه من أسر التقليد .. مثلما حرصوا على طمأنة الآخرين على حريتهم الدينية .

ولقد وضعت الجمعية نصب عينيها تنفيذ فكرةٍ عبقرية حدّدها لها الشيخ ابن باديس مع أعوانه ، وهي :

أن يكون تحرير الجزائر على أساس إنشاء جيشٍ من الشبان يحمل فكرةَ الجمعية وعقيدة الإسلام ... وأن يكون تلاميذ ابن باديس أشبه بنُقطِ جذبٍ لمئات الآلاف من أنصار الفكرة ، وحملة العقيدة ، ممن يجمعهم إيمان واحد وفكرة واحدة .

واعتمد ابن باديس على مبدأ إسلامي اتخذه دستوراً له في التعامل ، وهو :

« الكلمة الطيبة والدعوة بالموعظة الحسنة . مَن قَبِلَها فهو أخٌ في الله ، ومن ردّها فهو أخٌ في الله . فالأخوة في الله فوق ما يُقتَبَل وما يُرَدّ » .

وقد اتبع هذا السلوك النبيل مع تلاميذه ومريديه ، ومع خصومه ، على حدّ سواء .



ونشطت الجمعية .

أنشأت المدارس في كل بقعة من بقاع الجزائر . وأرسلت الوعاظ يجوبون المدن والقرى ... وكانوا يعرفون جيداً حقيقة

المهمة المناطة بهم : القيام بالتعبئة الدينية القومية الشاملة، من أجل المستقبل المرموق

ولقد صادفت هذه البعثات في طريقها عقباتٍ ومشقات ، وتحمّلتْ عذاباً وإهاناتٍ صبّها عليها البوليس الفرنسي من جهة ، وأتباع الرجعيين من جهة أخرى . إلا أنها خاضت جميع الصعاب برباطة جأشٍ وصبرٍ عظيم وإيمـــان منقطع النظير . . . ولو كانت ضعيفة الإيمان لأنثنت عن غايتها ،وعادت القهقرى ، فإنها تكون بذلك قد ضيّعت ما بناه ابن باديس من طلائع جيل الثورة الذي أمضى في تعليمه وتثقيفه منذ سنة ١٩١٣ .

ثم ما وعى الإستعمار إلاّ وهو في خضمّ تفتّحٍ في عقول الجزائريين وقلوبهم وأرواحهم . . .

ما السر ؟

كيف أخذ دمُ الحياد يعود إلى الشرايين التي ظنّ أنه جعلها يابسةً صلبة ؟

إنه ابن باديس ، هذا الإمام المخلص الذي ظلّ يعمل في صمت ، حتى جدّد إيمان مواطنيه بوطنهم المهان : الجزائر ،

وبدينهم المضطهد : الإسلام ، وبلسانهم المهمل العربية !

وآن لإحدى الجرائد الفرنسية أن تفطن إلى هذا الذي كان ... فكتبت تقول :

إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي جمعية دينية . ليس لأحد أن يشكّ في ذلك . ولكن نزعتها الدينية لا تظهر للعين على نحوٍ جلي . إن أصحابها يطوونها في صدورهم ، ولا يعلنونها . أجل ، إن إصغاءهم لدمشق والرياض والأزهر والزيتونة والقرويين ، وإن دعوتهم ضد المتخلّفين من شيوخ الطرق ، ذلك كله يتضافر « لفائدةِ القومية الجزائرية التي يخدمونها » .

وتمضي جريدة « كونكورد » الفرنسية إلى القول :

« وإن سياستهم الحاضرة تنحصر في الإعتصام بحصن الثقافة والدين ... وهذا يتيح لهم أن يتدخلوا في كل شيء ، منتظرين أن يتقدّم — في المستقبل الموعود — رجالٌ آخرون لاستعمال السلاح الذي يصقلونه هم اليوم ويشحذونه بأيديهم ... » !



استيقظت فرنسا ، إذن ، على الحقيقة التي أذهلتها .

والطغيان – كل طغيان – عندما يساوره خوفٌ من المحكومين ، فإنه لا يملك إزاءهم الحجةَ والمنطق والإقناع ، لأنه – في الأساس – طغيانٌ يقوم على الباطل ... إنه لا يملك إلا شيئاً واحداً : مزيداً من التضييق والكبت والطغيان !

إن جيش ابن باديس الروحي يزحف عبر قلوب الجزائريين إلى سويداء هذه القلوب ، القلوب التي أضناها القهرُ والعذابُ والألم المُمِضّ ، وبراها الشوق إلى الحرية والعدالة ... ها هي ذي ترى بوارقَ النور وتستردُّ ثقتها بالنفس وإيمانها بالله والحياة ، فالتعليم الصحيح الذي قاد حملتَه ابن باديس وأعوانُه قد بدأ يُؤتي ثماره ..

فماذا فعل الطغيان الذي خاف من انتشار الوعي الديني؟ قام يُعطّل المدارس ، ويزجُّ بالمدرسين في السجون . ومنع العلماء في ذلك من القاء الخطب في الجوامع ، فالخطبة لا يلقيها إلاّ الإمام المعين من السلطة ، وحتى يتم تنفيذ هذا المنع بدقة – كتماً للأنفاس – فقد نصّب سكرتيرُ الأمن العام في الجزائر – المسمّى « ميشيل » – نفسَه « رئيساً

للمجلس الأعلى في الشؤون الإسلامية » !

هذا ما فعله الطغيان !

فماذا فعل الشعب إزاء هذه الإجراءات التعسفية ؟

فأما الجزائريون ، الذين كانوا قد استيقظوا على يد ابن باديس وأعوانه ، فقد ازدادوا إيماناً بحقهم بالحياة ... وأما الذين كانوا ما يزالون غارقين في سُباتهم ، فقد أيقظهم الطغيان وهزّهم هزاً عنيفاً ، فإذا هم ينضوون تحت لواء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الآخذ في اكتساح البلاد من أدناها إلى أقصاها !

وهكذا أصبح الشيخ عبد الحميد بن باديس إماماً للمسلمين الجزائريين ، وغدا سيداً للموقف غير منازع .

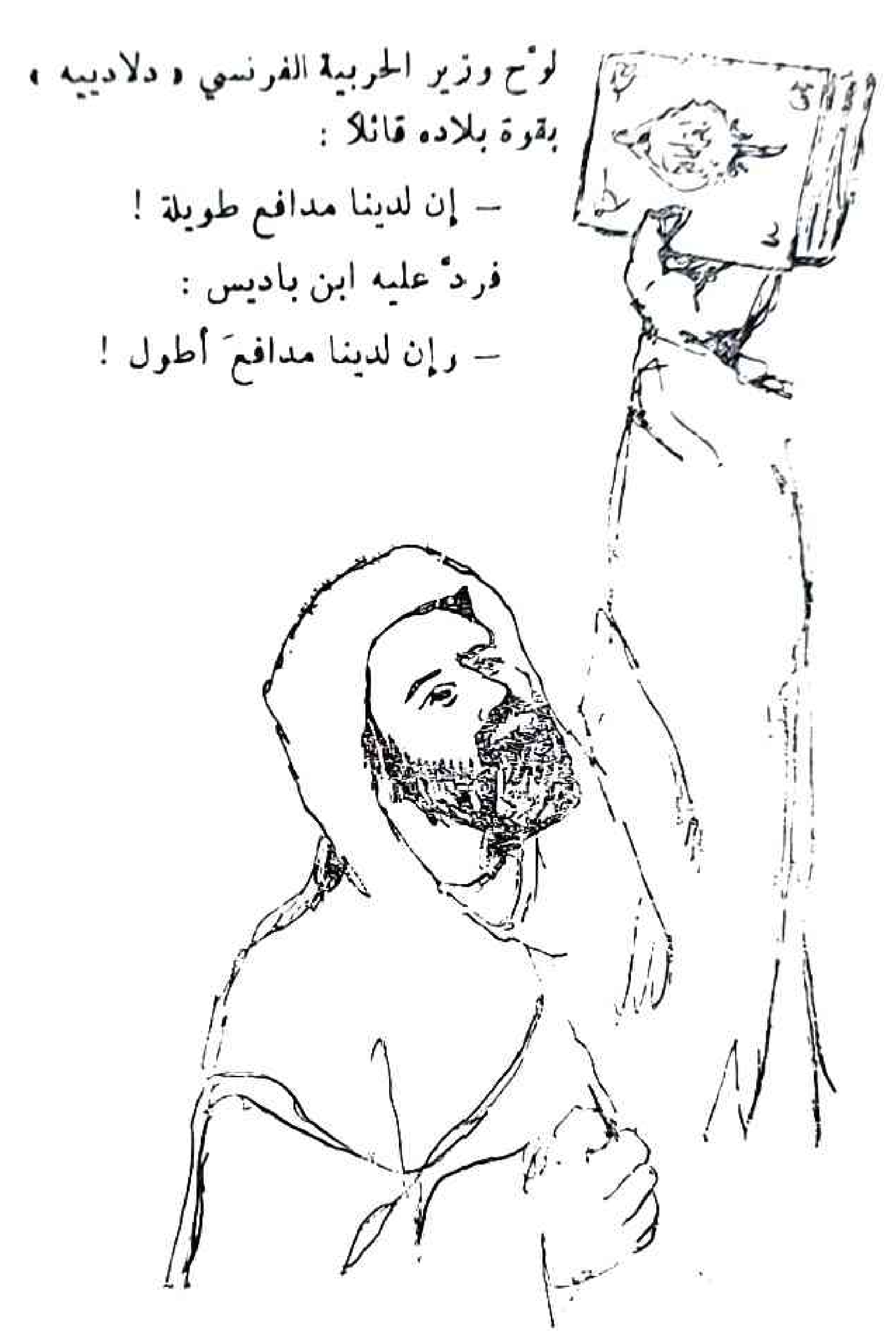


لوّح وزير الحربية الفرنسي « دلادييه » بقوة بلاده قائلا :

– إن لدينا مدافع طويلة !

فردّ عليه ابن باديس :

– وإن لدينا مدافعَ أطول !



فتساءل الوزير عن أمر هذه المدافع ؟ فأجابه الزعيم العربي المسلم جاداً :

– إنها ... مدافع الله .





انها ... مدافع الله !

أدركت الإدارة الفرنسية — وكان لا بدّ أن تدرك — أن الزمـام أوشك أن يُفلِتَ من بين يديها : فالوعي قد انتشر ، فإذا عمّ القطرَ الجزائري كله فإنه ما من سلاحٍ يمكن أن يَفُلّه ، ولا الحديد والنار !

ههنا ... لوّحت فرنسا بمشروعٍ ، سمّي فيما بعد « مشروع بلوم — فيوليت » (سنة ١٩٣٦) .

والحق ، إن هذا المشروع خدع كثيراً من السياسيين الجزائريين . فقد ظلت الجزائر طَوال أكثر من قرن من

الزمان ، وفرنسا تحكمها بوصفها مستعمرة . فجاء هذا المشروع لينص على إمكان « ادماج » الجزائريين بفرنسا ، وهذا يعني نقل الجزائر من مرتبة « مستعمرةٍ » إلى مرتبة « مقاطعة » .. حيث يتمتع الجزائريون بصفة « مواطن » فيكون لهم من الحقوق والواجبات ما للمواطن الفرنسي !

ورأى الإمام ابن باديس غلبةَ فكرةِ الإدماج على عقول كثير من رجال السياسة ، ورأى ميلَ بعض النواب الموالين لفرنسا إلى الإعتقاد بأنهم أصحاب الحق في البتّ في مصير الجزائر ... وهكذا بدأت سمومُ المؤامرة تسري في نفوس المواطنين بعد أن أفلح في تطهيرها من رجس المستعمر !

فكان أن دعا ابن باديس إلى عقد « مؤتمر إسلامي ».

انعقد المؤتمر الإسلامي الجزائري في ١٩٣٦/٦/٧ ، وكانت غالبية من حضر من أنصار الإدماج . وقد حضره العلماء ، ولكن بصفاتهم الشخصية وليس كممثلين عن الجمعية . واتخذوا قرارات ، وانتخبوا منهم وفداً يسافر إلى باريس لمقابلة أولي الشأن فيها .



قابل الوفـــد – ومنهم ابن باديس – وزير الحربيـة « دلاديه » ، الذي صرّح للوفد بأنه لن يُوافق على إعطاء النيابة في البرلمان للجزائريين مـا داموا مصرّين على أن تُطبَّق عليهم أحكامُ الشريعة الإسلامية ! ولما اشتدّ الجدل ، هدّد الوزيرُ الوفد ، وذكّرهم بقوة فرنسا وبمدافعها بعيدة المدى ، قائلاً :

– إن لدى فرنسا مدافع طويلة !

فردّ ابن باديس : إن لدينا مدافع أطول !

فتساءل الوزير الفرنسي عن أمر هذه المدافع ! فأجابه ابن باديس جاداً :

– إنها مدافع الله !

وإنما كان يعني ما عبأ به صدورَ الجزائريين من اعتزازٍ بتعاليم الإسلام ، التي لن يُقهَر المؤمنون بها إذا ما حان يوم اللقاء والنزال .

وقابل أعضاء الوفد الوزير « فيوليت » وطالبوه بحرية التعليم العربي ... فأنشأ الوزير يمتدح اللغة العربية ، مبيّناً أنها ... لغةٌ تاريخية ... ولغةُ علم ... فمن المحال أن

يُبْغِضَها أحد ... أو يقاومها ..

فاعترض ابن باديس :

– ولكن مع الأسف اللغة العربية محاربة بالفعل ، من قبل الإدارة الفرنسية بالجزائر ! وإن المسلمين يشعرون من أجل ذلك بألم شديد !

ومن الطريف أن يَلْفِتَ ابن باديس نظرَ أعضاء الوفد في خروجهم من مكتب فيوليت ، إلى أن الرجل كان يتدفّق في حديثه إليهم قبل أن يطرحوا عليه موضوع حرية التعليم العربي ، فلما أنشأ يتكلم في هذه المسألة ، تلجلج وتلعثم !!

وقابلوا رئيس الوزراء « بلوم » – وهو يهودي – فاستهلّ حديثه إليهم مرحّباً بقوله :

– إنني مسرور بزيارة مسلمين ليهودي ، وديموقراطيين لديموقراطي ، وفرنسويين لفرنسوي !

وقد شاء ابن باديس أن يذكّر الرئيس الفرنسي بخيبة أمل الجزائريين الماضية وبآمالهم الجديدة فقال :

– إن ألم الجزائريين ليس ضدّ جنسٍ ولا ضد دين ولا ضد

فرنسا ، ولكن ضد الظلم ! ولهذا لمّا جاءت الحكومة الشعبية (التي يرئسها بلوم) أعطتْها الأمة الجزائرية كلّ ثقتها ، وأعلنت سرورها ، وأرسلت هذا الوفد . فإذا رجعنا إليها ببعض مطالبها زادت ثقتها ، وإذا رجعنا وأيدينا فارغة ، انعكس ذلك الفرح ، وحصل عـــن انعكاسه ضررٌ عظيم يستغله أضدادكم وأضدادنا !

فأجاب رئيس الوزراء باندهاش :

– وكيف ترجعون وأيديكم فارغة ، وأنا وفيوليت (وكان إلى جانبه) نشتغل من الآن في مطالبكم ؟

وأعلن فيوليت :

– قبل الأحد يُنجز العمل !

وجاء يوم الأحد ، وما بعد الأحد من أيام ، ولم يُنجز من المطالب شيء ! .

لأن الاستعمار هو الاستعمار : ذلك الكذوب ، المماطل ، مصّاص الدماء !

★★★

وعاد ابن باديس إلى الجزائر ، ليشتعل غيظاً من فرنسا ، ويوجه نداءً إلى الشعب الجزائري يطفح مرارة :

« حرامٌ على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي ، أن نبقى نترامى على أبواب برلمانِ أمةٍ أخرى ، ترى – أو ترى أكثريتها – ذلك كثيراً علينا ... ويُسمِعنا كثيرٌ منها في شخصيتنا الإسلامية ما يمسُّ كرامتَنا ويجرح أعزَّ شيء لدينا. لندع الأمةَ الفرنسيةَ ترى رأيها في برلمانها ، ولنتمسَّكْ – عن إيمان وأمل – بشخصيتنا ، ولنطالبْ بالمساواة التامة في جميع الحقوق في وطننا » .

وأنشد شعراً عربياً إسلامياً ، جرى – منذ ذلك اليوم – في الجزائر على كل لسان مطلعه :

أشعبَ الجزائر ، روحي الفدا ... لما فيكَ من عزّةٍ عربيَّهْ
بنيتَ على الدين أركانها ... فكانت سلاماً على البشريهْ

وأنشد قصيدةً طويلةً أخرى ، منها :

شعبُ الجزائر مسلمٌ ... وإلى العروبة ينتسبْ
من قال : حادَ عن أصله ... أو قال : مات ، فقد كذبْ
يا نشء ، أنت رجاؤنا ... وبكَ الصباحُ قد اقتربْ

خذْ للحيـــاة سلاحهـا   وخضِ الحروبَ، ولا تهبْ
وارفعْ منـارَ العدل والإ   حسان، واصدمْ من غصبْ

***

وقد ظل ابن باديس زعيماً للشعب .

وعندما عمدتْ فرنسا في سنة ١٩٣٧ ، إلى الاحتفال المئوي بذكرى احتلال قسنطينة ، أصدر الزعيم منشوراً إلى أهالي المدينة أشار فيه إلى أن الفرنسيين يأبون إلاّ أن يُشعروا المسلمين بسلطة الغالبين ، وأن يثيروا العواطفَ ويمسُّوا كرامة الأحياء والأموات ، في الوقت الذي يهدرُون فيه حقوق الجزائريين ويتعقّبونهم بالقوانين الاستثنائية .

ثم يخبرهم بأن الجمعيات الإسلامية قد استنكرت إقامةَ هذا الاحتفال ، ويطلب إليهم مقاطعةَ هذه الاحتفالات.

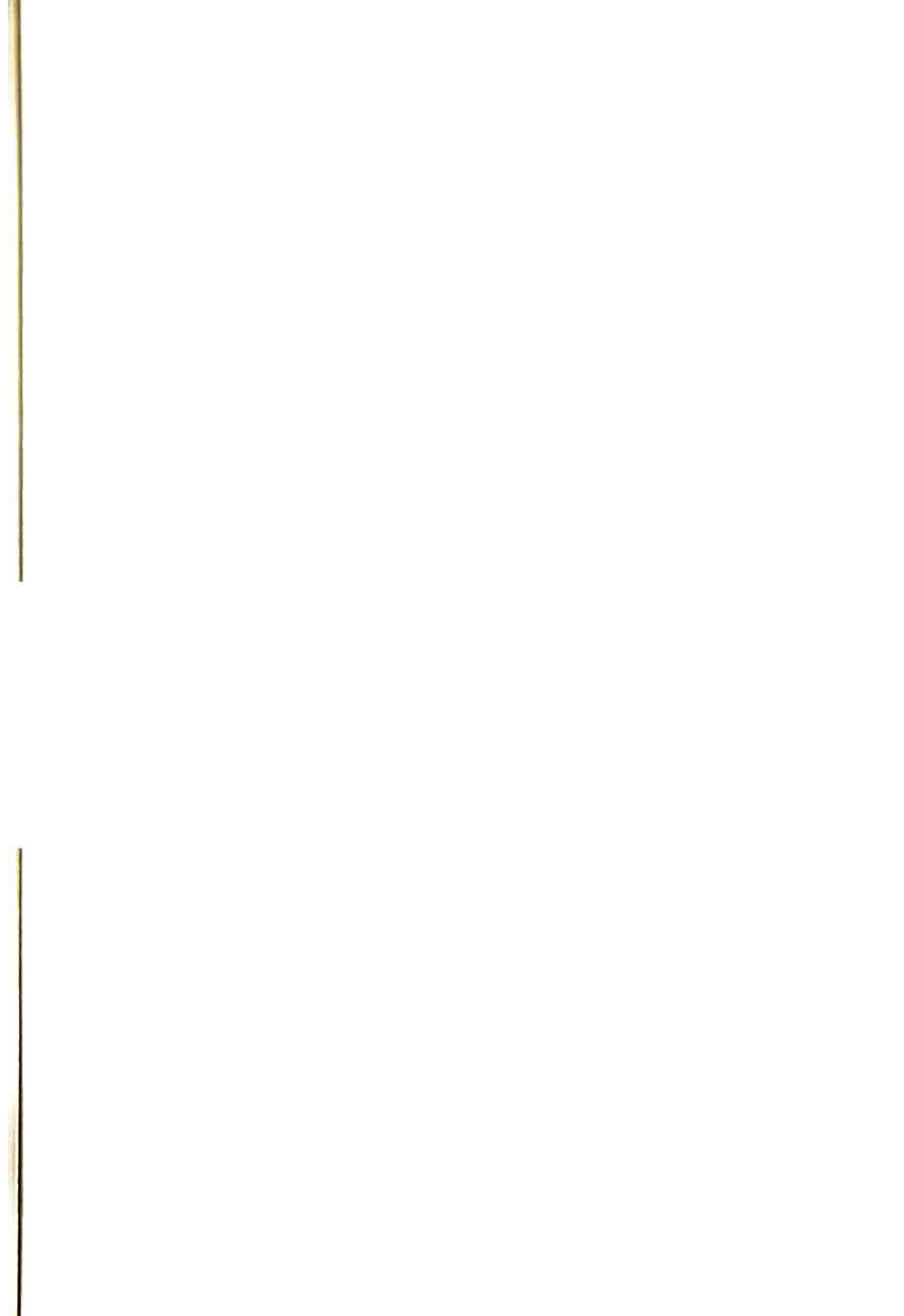
وقد استجاب أهالي قسنطينة لنداء ابن باديس . وفشل الاحتفال . ولم يَسَعِ الفرنسيين إلاّ أن يكظموا غيظهم ... فلقد احتمى خصمُهم الوطني الكبير بالعاطفة الدينية ، التي خشيت فرنسا إثارتها ، ولا سيما أن أهل قسنطينة اعتصموا بالهدوء في مقاطعتهم للاحتفالات .

وهكذا كان الإمام عبد الحميد بن باديس يؤكد ، في كل مرة أنه زعيم روحي كبير ... وأن زعامته مطاعة ... وأنه زعيم على درجة بعيدة من الدراية والحنكة ، يعرف متى يقول : نعم ، ومتى يقول : لا ... كما يعرف متى ينحني للريح ، ومتى يجابه بالقول الصريح ، الجهير ، الذي يكاد – من فرط قوته – يزعزع !



« إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تريد أن تصير فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت . بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد : في لغتها ، وفي أخلاقها ، وفي عنصرها ، وفي دينها » .

« ابن باديس »



شجاعة وثبات

أوتي الإمام ابنُ باديس – شأن الزعماء الكبار المؤمنين الأتقياء – شجاعةَ العقل وثباتَ القلب . وكان – إذا ما تطلّب الأمر – يقول كلمته الجهيرة وهو يهيّىء نفسه لتحمل ما تقتضيه من دواعي المسئولية ..

هَذَرَتْ يوماً ، كبرى الصحف البارزيسية « الطان » ، حين سوّدتْ مقالاً اتّهمتْ فيه الجزائر والجزائريين بما شاء لها « ضميرها » الاستعماري المهترىء ... واستعدتْ السلطات على ابن باديس وصحبه قادةِ جمعية العلماء ، الذين اتفقوا على

نسف نفوذ فرنسا باستعمال شق الطرق » ، واتهمهم بأنهم من دعاة « المذهب الوهابي » وبأنهم « أعوان الجامعة العربية الذين يدينـون بفكرة شكيب أرسلان والذين يتلقـّون تعاليمـه في لوزان عن طريق القاهرة ، ومن أهم مطالبهم حرية الوعظ في المساجد وحرية التعليم دون مراقبة » !

ويعلـّق ابن باديس – الصحفي – في مجلته « الشهاب » ، على ذلك قائلا :

« لقد كنا نمر كرامـا بهذا اللغو ، لو أنه صدر من صحيفة صغيرة . أما وقد صدرت هذه الأقوال المستهجنة صحيفة الطان ، فالسكوت عنها يُعَدُّ خَوَراً ، إن لم يعتبر جريمة ! » .

ويروح يُفنـّد ، بمنطق السياسي المحنـّك ، مزاعمَ الجريدة زعماً زعماً ، ويُبيـّن مقدار ما فيه من التجني والافتئات .

حتى إذا أتى على ذلك كله ، ختم تعليقه بهذه الصرخة الواعية ، صرخةَ الداعية المؤمن ..

قال الإمام رحمه الله ، يخاطب الإستعماريين :

« إسمعوا !

« إننا لن نرضيكم أبداً ، وإننا لن نعمل على إرضائكم ؟

« إننا لن نخشاكم أبداً ، ولن نعمل عملا يوقعنا تحت طائلة أيديكم .

« نحن سائرون على منهاجنا ، وفي طريقنا ، لا يضرُّنا صراُخكم ، ولا ينفعنا سكوتكم . فقولوا ما شئتم ، فلن تنالوا منا منالاً ، ولن نتزعزع عن عقيدتنا .

« إنما ننصحكم نصيحة خالصة : أن لا تعودوا لمثل هذا العمل المقوت ، فسياسة وخذ الدبابيس تنتهي غالباً بفقد الشعب لصبره ، وإخراج الحليم عن حلمه .

« وإننا لنسدُّ في أوجهكم هذا الباب ، إلاّ إن كسرتموه ، والأمر بعدئذ لله » .

كان ذلك في شهر مارس (آذار) ١٩٣٦ . هل نقول: إن السيل كان قد بلغ الزُبى ؟!

***

وراح ، مرة أخرى ، يصب على أحد نواب البرلمان من الجزائريين : « أنه فتّش عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ ، فلم يجد لها من أثر . وفتش عنها في الحالة الحاضرة ، فلم يعثر لها على خبر . وأخيراً أشرقت عليه أنوار التجلي ،

فإذا به يصيح : فرنسا هي أنا ! » :

قال ابن باديس ، وقد أدمت فؤادَه طعنة هذا الجزائري العربي المسلم ، يخاطب نواب البرلمان :

« اننا نقول لكم ، ولكل من يريد أن يسمعنا ، ولكل من يجب عليه أن يسمعنا : لقد فتّشنا نحن في صحف التاريخ ، وفتشنا في الحالة الحاضرة ، فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكوّنةً موجودةً كما تكوّنت ووجدت كلُّ أمم الدنيا . وأن لهذه الأمة تاريخَها الحافلَ بجلائل الأعمال ، ولها وحدتها الدينية واللغوية ، وثقافتها الخاصة ، وعوائدها وأخلاقها ..

« ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية[1] ليست هي فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تريد أن تصير فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت .

« بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد : في لغتها ، أخلاقها ، وفي عنصرها ، وفي دينها ، لا تريد أن تندمج ،

---

(١) يحمل الكتاب في شمال إفريقية مصطلحات: القومية العربية والوطنية الجزائرية والفكرة الإسلامية ، في مصطلح واحد هو « القومية الجزائرية »، مثلما كانوا يعبرون بـ « الأمة الجزائرية » عـن الشعب الجزائري الذي هو جزء من « الأمة العربية الكبرى .

ولها وطنٌ محدودٌ معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة .. » .

وقد نشر هذا المقال في شهر أبريل (نيسان) ١٩٣٦ من مجلة ابن باديس : « الشهاب » .

وقرأه النائب الجزائري العربي المسلم ، فتأثر له ، واقتنع به ... وسلك – كما قال ابن باديس في عدد تال من مجلته – « مسلك كبار رجال السياسة الذين يحبّذون النقد وينصاعون لكلمة الحق ، فزار إدارة « الشهاب » ، وأكد تقديرَه لجهودها ... وجرت له مع صاحب الشهاب محادثة دلت على سمو أدبه وعلو كعبه في عالم السياسة والتفكير » .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الرجل أصبح ، فيما بعد ، من كبار زعماء حرب التحرير الجزائرية .



« يريد الاستعمار الإنكليزي الغاشم أن يستعمل الصهيونية الشَّرِهةَ لقَسْمِ الجسمِ العربي وحطّ قدسِ الإسلام، فيملأ فلسطين بالصهيونيين المنبوذين من أمم العالم ».

« ابن باديس »



وفلسطين ... أيضاً

أجل، كان الإمام ابن باديس غارقاً في مأساة الجزائر حتى قمة الرأس، ولكن ذلك ما كان له أن يصرفه عن مآسي العرب والمسلمين في كل مصر من أمصارهم.

كان حركةً دائبة، ونشاطاً لا يفتر، يطّلع ويقرأ ويسمع ... فلما اشتدّ الخطب في فلسطين، ورأى ذئاب الإستعمار والصهيونية ينهشونها ويرومون تجزئتها، أبرق، في سنة ١٩٣٧، إلى وزير الخارجية الفرنسية.

« باسم الأمة الإسلامية الجزائرية أرفع احتجاجي الشديد

ضد مشروع تقسيم فلسطين ، ذلك القطر العربي الذي ضمنت له العهودُ والمواثيق الدولية حفظَ كيانه واستقلاله . واعتبر هذا المشروع ضربةً قاصيةً على حياة شعب ضعيف دافع طيلة سنين عديدة دفاع الأبطال عن شرفه وحريته ، واعتداءً شنيعاً على جميع الشعوب العربية والإسلامية ، وانتهاكاً لحرمة الأماكن المقدسة عند سائر المسلمين . ولي الأمل في تدخل الحكومة الفرنسية بكل سرعة لمنع هذا التقسيم » .

كما أبرق إلى المؤتمر البرلماني الذي عقد ، في سنة ١٩٣٨ ، في القاهرة من أجل نصرة فلسطين :

« جمعية العلماء المسلمين الجزائريين – باسم المسلمين الجزائريين – تحيي في شخصكم مؤتمركم العظيم ، وتضمُّ صوتها إلى صوتكم ، وتُوافق على ما يستقر عليه رأيكم ، وتؤيدكم بكل ما تستطيع في سبيل فلسطين ، التي هي قضية الحق والإنسانية والسلم العام » .

إن ابن باديس يرفع صوته العربي الحرّ من خلال مأساته الدامية في وطنه الصغير ... أفلا يحقُّ لنا القول إن زعامته الفكرية الكبرى كانت أكبر من أن تتّسع لها الجزائر ؟

وما ذلك إلاّ لإيمانه بالقرآن ، وبلسانه العربي ، فضلاً عما يملك من حس إنساني يدفعه إلى مدّ اليد ورفع الصوت — من خـلال محنته - تأييداً للمظلومين تحت سجوف ذلك الليل الأسود الذي جثم على صدر الأمة العربية .

***

وكتب في مجلته مقالاً بعنوان « فلسطين الشهيدة » بيّن فيه أن الإسلام حَمَى رحابَ القدس الشريف « وحَمَى مقدسات جميع الملل ، وكفّ عاديةَ بعضهم عن بعض ، وعاش اليهود تلك القرون الطويلة ينعمون برخاء العيش وحريـة المعتقد واحترام المعاهد » .

ولكن، كما يقول ابن باديس — « تزاوج الإستعمار الانكليزي الغاشم بالصهيونية الشرهـة ، فأنتجا لقسم كبير مـن اليهود الطمعَ الأعمى الذي أنساهم كل ذلك الجميل ، وقذف بهم على فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة ، فأحالوها جحيماً لا يطاق ، وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحاً لا يندمل » .

ثم يقول :

« هذه هي الحالة العامة التي كانت عليها فلسطين ألوفَ

السنين . حتى جاء الزوجان المشئومان : الصهيونية والإستعمار ، فكان البلاء على فلسطين كلها : عربها ويهودها . فليست الخصومة بين كلّ عرب فلسطين ويهودها ، ولا بين كل مسلم ويهودي على وجه الأرض ، بل الخصومة بين الصهيونية والإستعمار الانكليزي من جهة ، والإسلام والعرب من جهة ، والضحية فلسطين ، والشهداء حماة القدس الشريف ، والميدان رحاب المسجد الأقصى ... » .

ويمضي مُحلّلاً أهدافَ الإستعمار الانكليزي ، الذي يريد « أن يستعمل الصهيونية الشرهةَ لقَسْم الجسم العربي وحطّ قدس الإسلام ، فيملأ فلسطين بالصهيونيين المنبوذين من أمم العالم ... » .

وليت لإبن باديس عيناً ترى كم تجمّع من هؤلاء المنبوذين وشذاذ الآفاق في الديار المقدسة اليوم !

***



« والله ، لو وجدت عشرة من عقلاء الأمة الجزائرية يوافقونني على إعلان الثورة ، لأعلنتُها » .

« ابن باديس »

« لو وافقني عشرة ... لأعلنتها »

ظل الإمام ابن باديس ذلك المشعلَ الوهّاج الذي تستنير به القلوبُ المؤمنة في ليل الإستعمار الفرنسي الطويل .

وظل يعلّم في المساجد ويدرّس الصغارَ والرجال ، تحت بصر الاستعمار ورغم أنفه .

ولم تزايله صلابته ولا وهنت عزيمته . وكان إذاً لان في كلمةٍ كتبها في الصحف - ذراً للرمادِ في العيون - فمن أجل أن يُتْبِعَها بعشرة كلمات تكون أشدُّ وقعاً وأدلّ على مقاصده الدانية والبعيدة .

كان إيمانه بالمستقبل قوياً . كان كمن يلمحه عن بُعْد ... وهو يُعِدُّ الأجيال ، جيلاً بعد جيل . إن هؤلاء الصغار ، هؤلاء الشبان ، هم الذين سيحملون عبء الثورة في اليوم الموعود ، وينتزعون استقلال بلادهم انتزاعاً ... وأما أن « يُعطي » الإستعمار حقاً مهضوماً لشعب مظلوم ، فذلك ما رفض ابن باديس الإيمان به بعد ذهابه إلى باريس مع وفد المؤتمر الاسلامي ... بل كان يرفضه قبل ذهابه إلى باريس .

ثم إنه لاحت في الأفق نُذُرُ الحرب العالمية الثانية . فأقبلت فرنسا على الجماعات السياسية في الجزائر تبغي كسبَ ودها ، حمايةً لنفسها وضماناً لتجنيد المقاتلين من شعب الجزائر في حربها المقبلة .

وراحت الادارة الفرنسية تُوعز إلى أعوانها والخاضعين لها أن يرسلوا برقيات التأييد . ورأت أن تبعث بأحد رسلها إلى جمعية العلماء المسلمين ، ليعرض الأمر على رئيسها . وقد اجتمعت هيئة العلماء ، ورأى بعضهم أن لا بأس في مسالمة فرنسا في هذه الظروف ، حتى تبقي على مدارس الجمعية ونواديها فلا تعمد إلى اغلاقها والتضييق عليها .

ونتيجة التصويت كانت الأغلبية (وعددها أحد عشر

عضواً) ضدّ فكرة إرسال البرقية ، في حين أن عدد القائلين بالمسألة كانوا أربعة . وههنا صرّح ابن باديس :

– لو كانت الأغلبية في جانب موالاة فرنسا ، لاستقلتُ من رئاسة الجمعية .

وأكد أنه ما كان ليوقّع البرقيــة ولو قطعوا رأسه . إن للاستعمار أن يقتله إذا شاء ، لكنه لن ينضمّ إلى زمرة المؤيدين له .

وعمدت الإدارة الفرنسية إلى التحرش بالجمعية . فحرّضت بعض الأعوان على النيل منها وحاولت أن تستولي على مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة ، وإحلال اللغة الفرنسية فيها محل العربية ، فقال ابن باديس :

– لا أسمح بذلك حتى أموت .

وكم بذلت الإدارة الفرنسية من جهد كي تنتزع منه كلمة واحدة تُشَمّ منها رائحةُ تأييده لفرنسا ، دون جدوى .

★★★

ثم تلاحقت الأحداث ، وقامت الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٣٩ . وابن باديس يفكر في اتجاهات أخرى .

قيل إنه صرّح ذات يوم في اجتماع خاص مُقسِماً :

– والله ، لو وجدتُ عشرةً من عقلاء الأمة الجزائرية يوافقونني على إعلان الثورة لأعلنتُها .

وحينما حَمي وطيس الحرب ، اجتمع به يوماً بعض أتباعه ، فقال لهم :

– عاهدوني .

لما أعطي له العهد بالمصافحة ، قال :

– سأعلن الثورة على فرنسا ، متى شَهَرَتْ إيطاليا الحرب عليها .

وروى أحد تلامذته أنه كان ينوي الخروج على فرنسا إلى جبال أوراس ، ليعلنها ثورة على فرنسا ، لو وجد رجالاً يساعدونه .

***

وأصيب ابن باديس بداء السرطان في الامعاء . ولم يبالِ بصحته التي أخذت تتدهور وهو يتابع خطته في التدريس والكتابة ، ولسان حاله يردد ما سبق أن قال من شعر :

فإذا هلكتُ فصيحتي تحيا الجزائر والعرب

وقد لفظ أنفاسه الأخيرة في ليلة الثلاثاء الثامن من ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هجرية (١٦ أبريل - نيسان ١٩٤٠ م)، في مسقط رأسه قسنطينة.

وكانت إقامته قبل وفاته محددة، من طرف الإدارة الإستعمارية في مدينة قسنطينة، ليس له أن يبرحها إلى غيرها من نواحي البلاد.

ويوم تشييع جنازته إلى مقرها الأخير، خرجت قسنطينة تودعه الوداع الأخير، كما حضرت وفود من مختلف الجهات الجزائرية للمشاركة في التشييع.

ودفن في مقبرة «آل ابن باديس» الخاصة.

ورثاه الشعراء والكتاب والعلماء والفنانون. واحتوته الجزائر في قلبها، باعتباره عظيماً من خيرة من أنجبتهم على مر الزمان.

★★★

وكان لا بد لرجال الفكر، في الجزائر وفي سائر الأقطار العربية، من أن يهتموا به، فألفوا عنه الكتب التي تبحث في سيرته وفضله وعلمه وأدبه.

وقد مهدوا لذلك بأن جمعوا من الجرائد والمجلات ، التي كان يُوالي الكتابة فيها ، كل ما كتب ونشر ، فكانت الحصيلة سِفراً قيّماً يُعين الباحث على بحثه ، ويُعرّف القارىء بمراحل جهاد هذا المواطن المسلم العربي العظيم ، الذي بدأ يعمل من نقطة الصفر وما تسرّب اليأس إلى قلبه أبداً[1] .

---

(١) يتألف هذا السفر من أربعة مجلدات ضخمة بعنوان « آثار ابن باديس » من إعداد وتصنيف عمار الطالبي ، ونشر دار مكتبة الشركة الجزائرية، وقد تم طبعه في بيروت في العام ١٩٦٨ (١٢٨٨ هجرية) .

« ومن الممكن أن يأتي يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي المادي والأدبي ... وتعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر » .

« ابن باديس »

الخاتمـــة

انتقل الإمـام عبد الحميد بن باديس إلى الرفيق الأعلى في سنة ١٩٤٠ ، والحرب العالميـة الثانية تغرق العـالم بويلاتها .

ولكنه كان قد أثار في مواطنيه الثقة بالنفس ، وألهب صدورهم بالعزم على الثورة ، وأمدّهم بالأمل الكبير المنير .

وبالإختصار : لقد اجتاز هذا الزعيم الروحي ، بمواطنيه ، بحر اليأس ، ونقلهم إلى الشاطيء الآخر ... فرسم بذلك منعطفاً حادّاً في تاريخ المجتمع الجزائري ، في ظل ذلك الإستعمار الرهيب .

يقول المفكر الإسلامي الجزائري الكبير ، مالك بن نبي ، إن الجزائر ما قبل ابن باديس ، كانت البطولاتُ فيها تتمثّل في « جرأةِ فرد » ، في « قوة رجل » ، فلم تكن حوادثها تاريخاً بل قصصاً ممتعة ، « ولم تكن صيحاتهـــا

صيحاتِ شعبٍ بأكمله ، وإنما كانت مأساةَ ضميرٍ لصاحبه ، لا يصل صداه إلى الضمائر الأخرى فيوقظها من نومهـــا العميق » ، ويعتبر أن معجزة الحياة في الجزائر قد بدأت بصوت ابن باديس ، الذي أيقظ « المعنى الجماعي » ، وحوّل مناجاة الفرد إلى حديث الشعب .

أحيا ابن باديس روحَ القرآن في قلوب المسلمين ، في الوقت الذي كان الإستعمار قد أجهز على هذه القلوب طامحاً إلى « فَرْنَسَتها » . وكان المبشّرون يُلقّنون المسلمين أنهم أوروبيون مسيحيون في أصولهم ، وأن العروبة والإسلام أجنبيان عنهم !!

ولكن ما لاحظه المستشرق الفرنسي « ماسينيون » الضالعُ مع الإستعمار ، أنه كانت – رغم هذا كله – تسود الجزائرَ عاطفةٌ بدت له غريبة جداً ، تلك هي طموح المسلمين إلى أن يَنفُذوا بدينهم إلى عقول الفرنسيين وأرواحهم ... وقد لاحظ أن كتّاباً من الجزائريين – كانوا يُجيدون اللغة الفرنسية إجادة تامة – راحوا يستخدمونها في بثّ الدعاية في فرنسا ، ليس فقط من أجل تثبيت إيمـــان الجالية الإسلامية في فرنسا ، المعرّضين بحكم ظروفهم لخطر الخروج عن أصول الدين ، بل لكي يُدخِلوا إلى الدين الإسلامي

من يستطيعون من الفرنسيين ، وقـــد وُفـقوا فعلاً إلى غرضهم ، حيث دخل في الإسلام بعضُ الفرنسيين من الرجال والنساء .

***

ووضعت الحربُ العالمية الثانية أوزارها في سنة ١٩٤٥ . وكان الفرنسيون قد أخذوا يشيدون بالجزائريين لما يُقدّمونه من معونةٍ لهم في أثناء الحرب ، ويتملّقونهم ، ويُغدقون عليهم الوعود . ولكنهم ما لبثوا أن تنكّروا لهم ، ونسوا وعودهم وكل ما قدّمته لهم الجزائر من أيادٍ بيض ، شأن اللئيم الغدّار .

وعندما طالب الجزائريون بالإستقلال ، عشيةَ انتهاء الحرب ، كان الإستعمار أن أوقع فيهم مذبحةً ذهب ضحيتَها نحـــوُ ٤٥ ألف نسمة ، حيث قصفت الطائرات قسنطينة — مدينة ابن باديس — وبعضَ المدن الجزائرية الأخرى ، ودمّرت المدافع البيوت على رؤوس أهليها .

ولكن حركة الجهاد ما لبثت أن تجدّدت سنة ١٩٥٤ بقيام جبهة التحرير الجزائرية . فسارعت فرنسا إلى حشد جيش بلغ تعداده ٤٠٠ ألف جندي مجهّزين بأحدث الأسلحة الفتّاكة .

وناضل الشعب العربي في الجزائر طويلاً ، وتحمَّل من أفانين التعذيب والفتك والتدمير ما جعله من أعظم شعوب العالم صبراً على المكارة وشجاعةً وثباتاً وتفانياً .. ذلك أن قيم العروبة والإسلام ، والمبادىء العاليـة التي كان قد أجَّجها في الصدور الإمامُ ابنُ باديس وصُحبه الميامين ، قد أثمرت الآن ... فكان الثوار – قادةً وجنوداً – هم أولئك الذين تشرَّبوا مبادئه فاشرَأَبَّتْ نفوسُهم صلابةً وعزماً ومضاء.

وحقيقٌ بإبن باديس أن يوصف ، بصنيعه الهادىء المستمرّ على مرّ السنين إذكاء الشعور وشحذ الهمم ، بأنه – كما عبّر الدكتور محمود قاسم[1] – هو « الرجلُ السهل الممتنع الذي بدأ ينحت في الصخر نَحْتَ خرير الماء الهادىء ، حتى أتى على الصخر وأزاله من طريق هذه الأمة » !

★★★

ويطيب لنا أن نختم حديثنا عن ابن باديس ، بكلمةٍ مما كتبه وهو في غمرة محنة الجزائر سنة ١٩٣٦ ، وهو يدلُّ على صواب نظرته وصدق حَدْسِه ... قال :

« ولسنا من الذين يدَّعون علمَ الغيب مع الله ، ويقولون أن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد . فكما تقلّبت الجزائر مع التاريخ ، فمن الممكن أنها تزداد تقلّباً مع التاريخ .

---

(١) في كتابه « الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية » ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .

« ومن الممكن أن يأتي يومٌ تبلغ فيه الجزائر درجةً عالية من الرقيّ المادي والأدبي ، وتتغيّر فيه السياسةُ الإستعمارية عامة والفرنسيةُ خاصة ، وتصبح البلاد الجزائرية مستقلّةً استقلالاً واسعاً ، تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحرّ على الحرّ ».

فكان ابنَ باديس ، الزعيمَ الروحي للشعب ، كان يقرأ – يوم كتب ذلك – في كتاب الغيب المفتوح . إنه الإلهام الرائع الذي يسبغه الله على القادة المخلصين .

فهاهو التاريخ يتقلّب كشأنه ، وتتقلّب معه الجزائر العربية الحبيبة ، وتنتزع « استقلالها الواسع » – الذي حلم به زعيمها – تنتزعه انتزاعاً ، فهو استقلالٌ لا تشوبه شائبة ، وإنها لتبلغ من « الرقي المادي والأدبي » درجةً تجعلها مسموعةَ الكلمة بين دول العالم الثالث ، وفي الدول الرأسمالية والاشتراكية جميعاً .. فلا يزيدها ذلك إلا تواضعاً ، وحباً بالبشرية ، وَحدْباً على المضطهدين والمستضعفين من أمم الأرض ، وإلاّ اعتزازاً بنضالها وصمودها وبما بذلت من دم أبنائها ، شهدائهـا : المليون في حرب التحرير الكبرى ، والمليونين الذين زفّتهم إلى المجد إبّان ثوراتها في القرن الماضي.

فما أطولَها من رحلةِ نضال !

وما أعذبه من نصرٍ رائع !

وفي ذلك عبرةٌ من عِبَر التاريخ التي تتجدّد مع الزمن:

لا يصحُ إلا الصحيح ،

ولا يبقى إلا الحق ،

وأما الباطل ، فإلى زوال ، مهما تقادم به العهد

فهرس

	صفحة
الخلاص	١١
ليل طويل	١٧
شاب من قسنطينة	٢٧
الاعتداء من كل الجهات	٣٣
أمل الأمة المرجو	٤٣
ابن باديس ... صحفياً	٥١
علماء الدين يتجمعون	٦١
انها ... مدافع الله	٧٣
شجاعة وثبات	٨٣
وفلسطين ... أيضاً	٩١
« لو وافقني عشرة ... لأعلنتها »	٩٧
الخاتمة	١٠٥

الامة العربية امة غنية برجالها عريقة في تاريخها مثابرة في نضالهـا .

والامة العربية قد انجبـت على ترابها ابطالاً ونوابغ لعبوا دوراً رائعاً في الجهاد المسلح وفي الصراع الحضاري ، وكانت مسيرتهم وما تزال ضوءاً يكشف للاجيال عظمة هـذه الامة العربية التي انجبتهم .

وتعتز دار العودة ان تقدم للفتيان العرب والعمال والطلاب والمدرسين وكل القراء هذه السلسلة التي تتناول قصص حيـاة ونضال وانجازات رجالات الامة العربية .

وتعتز دار العودة ان تعلن ان الذين اعدوا هذه السلسلة مجموعة من خيرة الاساتذة والباحثين والمبدعين العرب هم :

الدكتور عزالدين اسماعيل — فاروق خورشيد

الدكتور احمد كمال زكي — احمد سعيد محمدية

الشاعر صلاح عبد الصبور — الفنان جمال كامل

الشاعر معين بسيسو — الفنان حسن جوني

عبد المنعم شميس